وباء الطاعون وأثره على مدينة القاهرة في العصر المملوكي

أ.م.د. فتحي سالم حميدي
قسم الحضارة الإسلامية
كلية العلوم الإسلامية / جامعة الموصل

تاريخ تسليم البحث: ٢٠١٢/١١/١١ ؛ تاريخ قبول النشر: ٢٠١٣/٤/٢٥

ملخص البحث:

لقد كانت الأوبئة وبصورة خاصة وباء الطاعون من أخطر ما تتعرض له المجتمعات البشرية في حقبة العصور الوسطى، لما له من آثار سلبية كبيرة ونتائج فتاكة تؤدي الى هلاك وتدمير القوة البشرية وتشل نموها السكاني والاقتصادي، لاسيما بعد ان يبدأ السكان بالفرار من هذا الوباء خشيةً من الإصابة به ، فتبقى الأراضي الزراعية بوراً لعدم وجود من يزرعها، ويتعطل الجانب الصناعي المتمثل بأصحاب الصناعات والحرف الفارين أو المتوفين بسبب الإصابة ، فضلاً عن توقف النشاط التجاري في تلك البلاد لعدم وفود التجار إليها ، كما يكون أثره مباشراً وبشكل سلبي على الحياة السياسية والعلمية في كثير من الأحيان بسبب وفاة الكثير من الأمراء والموظفين وعزلهم من ناحية ، وتوقف الرحلات العلمية ووفاة العلماء في مختلف الاختصاصات نتيجة لإصابتهم بهذا الوباء من ناحية أخرى، فكانت مدينة القاهرة واحدة من المدن التي تعرضت للطاعون كثيراً في العصر المملوكي وهذا ما سيفصل في متن البحث.

Tte Disease of Plague and its Effect on Ciro city In Al-Mamluki Ege

Asst. Prof. Dr. Fathi Salim Humidi
Department of Islamic Civilization
College of Islamic Science Education / Mosul University

Abstract:

Diseases, and espeially, Plague have been among the most dangerous things that societies have faced in the middle age. For it has big negative influence and deadly results which lead to destruction and ruin of human strength and economic and population growth, especially; after the escape of the population from this disease inorder not to be infected. Then, agricultural lands remain uncultivated because of the lack of those who plant them. And the

industrial side represented by industrialists and handworkers paralyzed because of the escape of those dead and the escape of those industrials. In addition to the stop of trading activity in this land because of the non-arrival of traders . It also has a direct and negative effect on the scientific and the political life because of the death and the isolating of many responsible persons and officers in various specializations because of this disease which face plague in Al-Mamluki age and what would detailed in the body of this paper.

المبحث الأول : وباء الطاعون ماهيته وأسبابه

أولاً : ماهية وباء الطاعون

أطلق المؤرخون القدماء كلمة الوباء على جميع أنواع الأمراض المعدية الفتاكة التي تصيب الإنسان أو الحيوان ، وعلى الرغم من إطلاقهم كلمة وباء على الطاعون ، إلا أن اغلبهم كان يدرك أن كلمة وباء اشمل من الطاعون ، وأن الطاعون واحدٌ من هذه الأوبئة ، وقد عرّفت المصادر التاريخية وباء الطاعون حسب ما شاع عنه آنذاك ، واصفةً إياه بأنه مادة سمية ينتج عنها بثرٌ وورمٌ مؤلمٌ [١] وأكثر ما يصيب المناطق الرخوة من الجسم ، ويظهر عليه احمرار أو اسوداد أو اخضرار، ويبدأ خفقان القلب بالازدياد في كثير من الأحيان فضلاً عن التقيؤ، كما أنها صنفته على ثلاثة أنواع كالطاعون الدملي والرئوي والدبلي ، ويبدو أن الأخير أكثرها انتشاراً في حقبة العصور الوسطى [٢] .

أما علماء الطب والباحثون المحدثون فعرّفوه بشكل مفصل، من خلال الاكتشافات والوسائل العلمية الحديثة ، مؤكدين على انه من الأمراض الوبائية القديمة، وهي شديدة العدوى وسريعة الانتشار والفتك ويتسبب بنسبة وفيات كبيرة جداً إذا ما انتشر في بلدٍ ما، وهو في الأصل من الأمراض التي تصيب الحيوانات القارضة كالفئران ، ومنها ينتقل إلى الإنسان عن طريقين، أما التلامس المباشر مع الحيوانات المصابة أو عن طريق البراغيث ، فتصاب الغدد اللمفاوية الموجودة في الفخذ والإبط والأذن وتبدأ بالتضخم ، وتنتقل الجراثيم إلى الدم مباشرةً ومن ابرز أعراضه، الألم الشديد المصحوب بحمى وقشعريرة مع تقيؤ وعطش شديد ، فضلاً عن صداع وهذيان، وتظهر في اليوم الثالث من الإصابة دمامل سوداء تأخذ بالتضخم شيئاً فشيئاً وإذا ما تقيحت هذه الدمامل يكون هناك أملٌ في شفاء المصاب ونجاته من الموت . أما إذا بقيت صلبة كما هي فأنها تؤدي إلى وفاته على الأغلب في اليوم الخامس من الإصابة ، كما تكون فرصة نجاة المصاب وشفائه كبيرة إذا بقي حياً إلى ما بعد اليوم العاشر ، كما ينتقل الطاعون من منطقة إلى أخرى بشكل سريع ، إذا لم تتخذ التدابير الوقائية اللازمة لمنع انتشاره،وهذا ما كان مستحيلاً في حقبة العصور الوسطى ، لعدم وجود الطرائق والوسائل الكفيلة بمنع انتقاله من إقليم إلى آخر [٣] .

ثانياً : الأسباب الرئيسة لتفشي وباء الطاعون

شهدت بعض أقاليم الدولة العربية الإسلامية في حقبة العصور الوسطى ظاهرة حدوث وباء الطاعون بكثرة[٤]، وكانت مصر احد هذه الأقاليم ، لاسيما في العصر المملوكي ، إذ تعرضت للإصابة بوباء الطاعون أكثر من أربعٍ وأربعين مرة إما بشكل كامل أو في أجزاء مختلفة منها ومدينة القاهرة التي تمثل نطاق البحث لـــواحدٍ وعشرين مرة [٥] وعلى الرغم من تعدد حالات الحدوث المتباينة زمنياً ،إلا أن الأسباب الرئيسة لحدوثها تبقى ذاتها مع تغيرات بسيطة وهي كالآتي:

١_ الأزمات الاقتصادية التي تعرضت لها مصر بما فيها عاصمتها القاهرة في العصر المملوكي، سواء لأسباب طبيعية كحدوث الجفاف والجدب والفيضانات والآفات الزراعية والأوبئة والأمراض التي تصيب الحيوانات من ناحية ، أو لأسباب بشرية كالحروب والفتن الداخلية وكساد التجارة واحتكار المواد الغذائية ، وعدم توفر الشروط الصحية فيها من ناحية أخرى[٦] ، ومهما كانت أسباب هذه الأزمات ، فأنها تؤدي إلى حدوث القحط والمجاعات التي يخلفها عادة انتشار وباء الطاعون أو بالعكس ، وقد يكون ملازماً لها في أحيان أخرى ، ويندر حدوث ذلك كما هو الحال في طاعون سنة ٨٦٤هـ/١٤٥٩م ، وقد عد ابن تغري بردي (ت ٨٤٧هـ) هذا الأمر من المصادفات النادرة قائلاً : ((من النوادر وقوع الوباء والغلاء معا في وقت واحد))[٧]، ويرجع ذلك إلى النقص الحاد في المواد الغذائية ، وان تَوَفَرَ قسماً منها ، فهي لا تكفي لسد الحاجة أو تكون غير صحية[٨] ويضيف ابن خلدون (ت٨٠٥هـ) أسباباً بشرية أخرى كالاضطرابات السياسية والفتن وكثرة القتلى((كثرة المجاعات ... وكثرة الفتن لاختلال الدولة فيكثر الهرج والقتل))[٩]، وهذا ما كان يحدث في العصر المملوكي بسبب الحروب والصراعات التي تدور بين طوائفهم ، مما يخلق فوضى سياسية ينجم عنها أزمة اقتصادية ، فتغلق المدينة أسواقها ، وتبدو كأنها مدينة أشباح خالية من السكان ، كما حدث في ٦٩٣هـ/١٢٩٣م و٨٧٢هـ/١٤٦٧م وسنوات الطاعون الأخرى[١٠].

٢_ رداءة المناخ والظروف البيئية : إن عدم استقرار المناخ ما بين الجاف مرة والرطب مرة أخرى ، فضلاً عن عدم استقرار الحرارة والبرودة وتلوث الهواء ومياه الأنهار في الأوقات التي تسبق مواسم الفيضانات من أسباب حدوث الطاعون [١١] ، وهذا ما أكدته بعض المصادر التاريخية أثناء الحديث عن نهر النيل ((يخضر لونه مع بداية الزيادة وتكون مياهه غير صالحة للشرب))[١٢] وإذ ما دققنا في الطواعين التي أصابت مصر بشكل عام ، نجد أن لنقصان منسوب نهر النيل أو فيضانه دوراً كبيراً في حدوث المجاعات التي تؤدي إلى حدوث الطاعون [١٣] ، لذا فقد كان اختيار مواقع المدن الإسلامية وازدهارها مرتبطاً بمناخها وبيئتها الجيدة .

٣_ التوسع العمراني وتزايد أعداد السكان : إن توسع المدن وكثرة العمران نتيجة لتزايد أعداد السكان فيها ، يؤدي إلى تلوث بيئي بسبب كثرة الأبنية ، وعدم وجود الفسح الخالية التي تسمح

بتداور الهواء ، مما يتسبب في انتشار الأوبئة التي تودي بحياة الكثير ، ويكون هذا عادةً في المدن الكبيرة المكتظة بالسكان أكثر من غيرها[١٤] ، وقد أكد ابن خلدون على أن التوسع العمراني أحد مسببات انتشار الأوبئة من خلال قوله : ((... وسببه في الغالب فساد الهواء بكثرة العمران ...ولهذا فان الموتان يكون في المدن الموفورة العمران أكثر من غيرها بكثير)) [١٥].

٤_ عدم وجود الأساليب الوقائية المتطورة لمعالجة الأوبئة والأمراض في حقبة العصور الوسطى فضلاً عن عدم الاهتمام بالنظافة ، وقيام السكان بإلقاء الأوساخ والقاذورات وجيف الحيوانات الميتة في الطرقات ومجاري الأنهار [١٦] .

٥_ التماس المباشر مع الحيوانات القارضة التي تنتشر في المنازل كالفئران وغيرها ، فهي تشكل احد أسباب الإصابة بالطاعون، لا سيما أنه من الأوبئة التي تصيب القوارض ومنها تنتقل إلى الإنسان[١٧].

المبحث الثاني : القاهرة ووباء الطاعون في العصر المملوكي

تعرضت مصر بشكل عام ومدينة القاهرة بشكل خاص إلى حدوث وباء الطاعون وانتشاره فيها لمرات كثيرة في العصر المملوكي ، إلا أن حدة انتشاره وآثاره على السكان في عصر المماليك البحرية (٦٤٨-٧٨٤هـ/١٢٥٠-١٣٨٢م)، كانت اقل مما هي عليه في عصر المماليك الجراكسة (٧٨٤-٩٢٣هـ/١٣٨٢-١٥١٧م) ، ويرجع ذلك إلى أن دولة المماليك البحرية كانت في بداية حكمها دولة فتية قادرة على مواجهة الأزمات بفضل سلاطينها الأقوياء الذين عملوا جاهدين على جعل دولتهم قوة كبرى تتمتع بكل الصفات التي تؤهلها لزعامة المسلمين في العالم.أما في عصر المماليك الجراكسة فبدأت دولتهم تهرم شيئاً فشيئاً ، وأخذت عوامل الضعف تنخر في جسدها على مختلف الأصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، لذا فقد كانت آثارها واضحة من خلال تكرار وقوع أزمات الغلاء وانتشار والأوبئة كالطاعون بشكل متتالي،على الرغم من محاولاتها اليائسة للتغلب على تلك المشاكل. وقبل تناول دراسة وباء الطاعون الذي ضرب مدينة القاهرة في العصر المملوكي،لابد من الإشارة إلى أن حدوثه كان متكرراً ، وما هو إلا سلسلة طويلة من الطواعين التي حدثت في تلك الحقبة التاريخية ، وكانت متتالية ومتقاربة في أحيان كثيرة ، مما جعل مهمة الحديث عن كل واحدة منها بشكل منفصل أمراً في غاية الصعوبة [١٨] ، وعلى الرغم من ذلك سنحاول جاهدين للإلمام بكل منها لتظهر الدراسة بشكل أكاديمي متكامل .

إن أول طاعون حدث في مصر في العصر المملوكي ، وتفشى في القاهرة في سنة ٧٢٠هـ/١٣٢٠م ، وكان شديداً نوعاً ما ، إلا أن الكثير من المصادر التاريخية أغفلت ذكر تفاصيله، باستثناء السيوطي (ت٩١١هـ) الذي أشار إلى تفشي الوباء بمصر كلها دون تحديد نوعه، كما أنه لم يشر إلى القاهرة بشكل صريح، كما أشار إلى ارتفاع أسعار المواد الغذائية نتيجة

لهذا الوباء[١٩]. أما الطاعون الثاني فقد عم مصر، في شهر صفر سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م [٢٠] ، واجتاح القاهرة، وامتد إلى أواخر محرم من السنة التالية ، مخلفاً وفيات كثيرة ((فمات فيه أمم لا يحصيهم إلا الله)) ، وبلغت أعداد الوفيات في القاهرة ومصر في اليوم الواحد ما يقرب من (١١٠٠٠) نسمة [٢١] ، وعلى ما يبدو ان العدد مبالغ فيه رغم اشارة الكثير من المصادر إلى كثرة أعداد الوفيات، وممن توفي مطعوناً في هذا الوباء المقرئ محمد بن أبي بكر بن علي شمس الدين الشطي الصالحي، والأمير أسندمر القليجي ، والأمير قطليجا البتلتمرى والي القاهرة ومحتسبها محمد بن على بن المهتار [٢٢] . كما أشارت بعض المصادر التاريخية إلى تكرار حدوث الطاعون في القاهرة ٧٦١هـ/١٣٥٩م واستمر حتى سنة ٧٦٢ه/١٣٦٠م دون ذكر أي تفصيلات أخرى ، كما يأتي طاعون سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٢م الذي فشا بالقاهرة في رمضان [٢٣] نموذجاً واضحاً للوباء الذي اثر فيها بشكل كبير ، وزاد من سوء أوضاعها ، وأودى بحياة عدد كبير من سكانها لاسيما اليهود الذين شكلوا نسبة كبيرة ، فقدر عدد الضحايا في شهر رمضان نحو(١٠٠٠) نسمة وفق رواية ابن كثير[٢٤]، وكان من بين وفيات في هذا الطاعون الأمير سيف الدين بلك الجمدار الناصري[٢٥]، والأمير بكتوت القرماني ، والقاضي عبد الرحيم بن محمد بن عبد الرحمن القزوينى والشيخ سراج الدين عمر الصفدى متولي مشيخة الخانقات الصوفية [٢٦] . كما وقع الطاعون في مصر في سنة ٧٦٩هـ/١٣٦٧م وانتشر في جميع أراضيها وصولاً إلى القاهرة ، واستمر متفشياً فيها أربعة أشهر ، عانى السكان خلالها كثيراً من شدة فتكه إذ بلغ عدد ضحاياه أكثر من (١٠٠) نسمة في اليوم الواحد [٢٧] . كما ابتدأ انتشار وباء الطاعون مرة أخرى في مدينة القاهرة في سنة ٧٨٣هـ/١٣٨١م واول من مات فيه من الأمراء المماليك أيدمر الشمسي ، والأمير علي بن قشتمر ، واخذ هذا الوباء بالتزايد في شهر صفر وانتهى في أواخر شهر ربيع الأول [٢٨]، وأسفر عن ارتفاع كبير في الأسعار استمر حتى سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٢ [٢٩]. وما أن دخلت سنة ٧٩٠هـ/١٣٨٨م حتى انتشر الطاعون في القاهرة ونواحيها ، وانشغل الناس بمعالجة مرضاهم ودفن أمواتهم مع ازدياد خشيتهم من الإصابة به ، واستمر هذا الوباء يفتك بالقاهرة حتى سنة ٧٩١هـ/١٣٨٩م ، مخلفاً خسائر بشرية كبيرة لم تحددها المصادر [٣٠]. وفي رمضان سنة ٨٠٩هـ/١٤٠٦م فشا الطاعون في القاهرة ، واستمر حتى نهاية السنة موديا بحياة الكثير من سكانها ، وممن مات فيه من الأعيان شهاب الدين أحمد بن عبد الله العجمي الحنبلي [٣١] ، وأكد السيوطي حدوث هذا الطاعون ، إلا انه انفرد بالإشارة إلى انه وقع في سنة ٨١٠هـ/١٤٠٧م [٣٢].

وعلى ما يبدو أن سنة ٨٠٩هـ/١٤٠٦م هي التاريخ الصحيح والأرجح لوقوعه ، لإجماع المؤرخين عليه من ناحية ، وقدم هؤلاء المؤرخين فهم اقرب زمنياً للحدث من ناحية أخرى. وفي أواخر شهر ذي الحجة من سنة ٨١٦هـ/١٤١٣م وقع الطاعون بمصر وتفشى بين السكان[٣٣]، وأصبحت القاهرة إحدى المدن الموبوءة ، وكان أثره كبيراً على الأطفال دون غيرهم، بسبب

الارتفاع الملحوظ في درجات الحرارة التي تسببت في زيادة عدد الوفيات ، فبلغت (١٢٠) نسمة في اليوم[٣٤]، ومن الأسباب الأخرى التي زادت من حدته هبوب رياح شديدة من الجهة الجنوبية واستمرارها لعدة أيام ، فبلغ عدد الوفيات في القاهرة وحدها يومياً ما بين (٢٠-٣٠) نسمة من مختلف الفئات العمرية حسب ما ورد إلى الديوان من أسماء ، وازدادت ردائة المناخ مع حلول فصل الربيع ، فبدلاً من اعتداله كما هو معتاد أصبح حاراً يابساً ورياحه كلها جنوبية ، مما أسهم في ازدياد انتشار الطاعون وارتفاع ضحاياه إلى ما يزيد على(١٠٠) نسمة ، واخذ الطاعون بالتزايد في بداية شهر صفر، إلا انه بدأ بالتناقص في منتصفه،وذلك بسبب تحسن الطقس،لاسيما بعد أن عمت الرطوبة فخففت من موجة الحر لمدة عشرين يوماً ،إلا أنها لم تلبث أن ارتفعت مرة أخرى، فتزايد الطاعون؛ فتجاوزت أعداد الوفيات(١٢٠)نسمة في اليوم ، مما اثر سلباً على الحالة الاقتصادية، فاضطربت الأسواق ، وارتفعت أسعار البضائع المطلوبة كمادة مفيدة للموبوءين مثل البطيخ الصيفي [٣٥] . بعد مرور أربع سنوات على تعافي القاهرة من الطاعون الذي ضربها ،عاد إليها مرة أخرى في محرم سنة ٨١٨هـ/١٤١٥م[٣٦]واخذ بالتزايد شيئاً فشيئاً حتى بلغ ذروته في شهري صفر وربيع الأول، وبلغ عدد الوفيات (٨٠) نسمة يومياً ، وانتهى في ربيع الآخر من السنة ذاته[٣٧]. وما إن دخل ربيع سنة ٨١٩هـ/١٤١٦م على القاهرة حتى تفشى الطاعون فيها مخلفاً أعداداً كبيرة من الوفيات [٣٨]بلغت(١٠٠) نسمة يومياً في منتصف صفر، ثم ازدادت إلى(٢٠٠) نسمة في آخره ، ووصل الحال إلى درجة وفاة معظم أفراد العائلة الواحدة ، وقدرت المصادر عدد الوفيات في القاهرة وحدها مع بداية شهر ربيع الأول(٣٠٠) نسمة يومياً ، ثم ارتفعت إلى(٥٠٠) نسمة في منتصفه ، وربما وصل العدد إلى أكثر من ذلك لان الإحصائيات كانت تعتمد على من ترد أسماؤهم إلى الديوان ، ومن جملة من توفي في هذا الطاعون ابنتا الإمام ابن حجر العسقلاني اللتين أورد ذكرهما في سياق الحديث عن طاعون هذه السنة ((وماتت ابنتاي عالية وفاطمة وبعض العيال))، كما أشار إلى أن فرصة نجاة المصابين بطاعون هذه السنة كانت ضئيلة جداً ، فكانوا يموتون خلال وقت قصير جداً ، وممن توفي في هذا الطاعون بعض أمراء المماليك واعيان القاهرة وعلمائها ، منهم قاضي العسكر ومفتي دار العدل تقي الدين أبو بكر بن عثمان بن محمد بن الجيتي [٣٩] ، وإبراهيم بن العز محمد بن أحمد بن أبي الفضل محمد النويري [٤٠] ، والإمام أبو أحمد ظهيرة بن حسين بن علي بن أحمد المخزومي المكي[٤١]. لقد تسبب انتشار وباء الطاعون في سنة ٨١٩هـ/١٤١٦م إلى حدوث أزمة غلاء نتج عنها مجاعة في القاهرة وضواحيها ، فسعى السلطان المؤيد(٨١٥-٨٢٤هـ/١٤١٢-١٤٢١م) جاهداً من اجل اتخاذ التدابير اللازمة لإصلاح الوضع الاقتصادي[٤٢] ،وهذا ما سيتم التفصيل عنه في أثناء الحديث عن سبل معالجة الطاعون والوقاية منه .

وفي سنة ٨٢٠هـ/١٤١٧م تفشى الطاعون بالإسكندرية ودمياط ووصل إلى القاهرة ، إلا أنه كان فيها اخف وطأة من غيرها من المدن مقارنة بالطواعين الأخرى، فبلغت وفياته(٤٠) نسمة يومياً[٤٣] ، ولم تقدم المصادر تفصيلات أكثر عن أوضاع القاهرة في أثناء هذا الطاعون.

لم يلبث وباء الطاعون أن عاد إلى مصر في شهر ربيع الأول سنة ٨٢٢هـ/١٤١٩م[٤٤]، وتفشى في القاهرة ، مما أرعب السلطة والعامة في آن واحد ، وبدؤوا باتخاذ التدابير اللازمة لمواجهة هذا الخطر الذي يهددهم جميعاً دون استثناء ، فتمت دعوة الناس إلى الصيام والصلاة والدعاء وترك المعاصي ، كما صلى السلطان وسبح ودعا بمعية الخليفة وقاضي القضاة ، وذبح القرابين لله تعالى عسى أن يرفع الطاعون عنهم ، ووزع أكثر من (٢٨٠٠٠) رغيف من الخبز ثم أخذ الطاعون بالتناقص تدريجياً ، فبلغ عدد الأموات في مستهل جمادى الأولى (٧٧) نسمة يومياً حسبما تم إحصائه في الديوان بعد أن كان أضعافاً مضاعفة، كما أورد ابن تغري بردي إحصائية مفصلة بعدد الوفيات في القاهرة خلال خمسة وسبعين يوماً امتدت من منتصف شهر صفر إلى سلخ شهر ربيع الآخر ، فبلغ مجموعها (٧٦٥٢) نسمة منهم (١٠٦٥) رجلاً (٦٦٩) امرأة و(٣٩٦٩) طفلاً و(٥٤٤) من العبيد و(١٣٦٩) من الإماء و(٦٩) من النصارى و(٣٢) من اليهود، فضلاً عمن لم يرد اسمه الدواوين [٤٥]. وصل وباء الطاعون إلى القاهرة في ٨ شعبان ٨٢٣هـ/١٤٢٠م بعد أن ظهر قبل ذلك في الإسكندرية وبلاد الصعيد ، على الرغم من عدم وجود الظروف المناخية المؤدية إلى ظهوره، فمنسوب مياه النيل كانت معتدلة ، ودرجة الحرارة كانت غير مرتفعة في صيف هذه السنة، واستمر حتى العام التالي ، فارتفع عن القاهرة ،إلا انه كان اخف من طاعون السنة السابقة[٤٦] .

انتعشت مدينة القاهرة ، ولم يطرق الطاعون لها باباً إلا بعد مرور عشر سنوات ، ففي ذي القعدة ٨٣٣هـ/١٤٢٩م تفشى بالمدن المصرية [٤٧] كالوجه البحري والإسكندرية ، نتيجة لارتفاع درجات الحرارة عن الحد الطبيعي، مما كان سبباً في وفاة أعداد كبيرة ، فضلاً عن الخسائر الكبيرة في الثروة الحيوانية في مدن مصر ، واستمر حتى فصل الشتاء ، حيث وصل إلى القاهرة ، ويعد حدوثه في ذروة فصل الشتاء من الأمور النادرة ، فبلغت وفيات القاهرة(١٢) نسمة يومياً، ووصلت إلى ما يقرب من(٥٠) نسمة، وأخذت هذه النسبة بالارتفاع مع نهايات ربيع الآخر ، فبلغت (١٠٠) نسمة، مما ادخل الذعر في قلوب السكان ، فكرروا ما قاموا به في سنة ٨١٩هـ/١٤١٦م من صيام ودعاء وصلاة وتقديم القرابين وترك المعاصي ، وعلى الرغم من ذلك لم يخف الوباء، وأخذت أعداد الوفيات بالزيادة إلى أضعاف ما كانت عليه ، فبلغت (٣٠٠) نسمة يومياً ، فضلاً عمن لم يرد اسمه إلى الديوان [٤٨]. ازدادت حدة الطاعون في شهر جمادى الأولى فبلغت وفيات القاهرة في الرابع من هذا الشهر (١٢٠٠) نسمة ، ومات في هذا الطاعون عدد كبير من مماليك السلطان الأشرف برسباي (٨٢٥-٨٤١هـ/١٤٢١-١٤٣٧م) [٤٩]، إذ وصلت إلى (٥٠) مملوك يومياً، وفي

أخر شهر جمادى الأولى بلغ عدد من صلي عليه (٥٥٠) نسمة ، وأحصيت الوفيات في جميع مصليات القاهرة، فبلغت (٢٢٤٦) نسمة ، كما توفي من السودان (٣٠٠٠) نسمة ، ونتيجة لكثرة الوفيات عز وجود حمالي الموتى وغاسليهم ومن يحفر القبور ، مما اضطر السكان إلى القيام بالدفن الجماعي في حفرة واحدة [٥٠] . عرف هذا الطاعون بشدة وطئته على سكان القاهرة ، وكان من أكثر الطواعين التي وقعت فيها أضرارا بالسكان ، لذلك أطلق عليه تسمية (الفناء العظيم) ، وهذا ما أكده المقريزي من خلال قوله : ((فقد مات في طاعون سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة في يوم واحد بالقاهرة وظواهرها نحو عشرة آلاف إنسان ، واستمر ذلك أياما ما بين ثمانية آلاف وتسعة آلاف وعشرة آلاف)) [٥١] ، كما خلت بيوتٌ كثيرة من أهلها على الرغم من كثرة عددهم [٥٢] .

لقد ساءت الأوضاع الاقتصادية في شهر جمادى الآخرة بسبب هذا الطاعون الذي خلف أزمة اقتصادية حادة زادت من وقعه ، فبلغ عدد من صلي عليه بمصلاة باب النصر فقط في يوم واحد أكثر من (٨٠٠) نسمة [٥٣]، وفي ذات اليوم بلغ عدد من خرج من الأموات من سائر أبواب القاهرة(١٢٣٠٠) نسمة، وبلغ عدة من صلي عليه بمصلاة باب النصر من الأموات في العشر الأوسط من جمادى الآخرة (١٥٣٥) نسمة ، ومثلها تقريباً في مصلاة المؤمني[٥٤] ، وفي يوم ١٨ جمادى الآخرة دخل فصل الربيع ، وأخذ الطاعون يتناقص غير أنه فشا يومئذ في أعيان الناس وأكابرهم ومن له شهرة بعد أن شكل الأطفال اغلب ضحاياه [٥٥] . ومما يدل على شدة هذا الطاعون تفشيه بين الحيوانات أيضاً، اذ لم يقتصر الوباء على البشر، فوجد في نهر النيل والبرك أعداد كبيرة من الأسماك والتماسيح الموتى طافية ، فضلاً عما مات من الحيوانات البرية في بساتين القاهرة من الدجاج الظباء والذئاب وغيرها [٥٦]، فانشغل السلطان كثيراً بأمر هذا الطاعون ومنحه الأولوية على غيره من الأمور، وسعى جاهداً لإيجاد مخرج من هذا المأزق، واخذ يتشبث بأي علاج حتى وان كان خرافياً، إلا أن الطاعون اخذ بالتناقص مع دخول شهر رجب ، وعلى الرغم من ذلك اخذ السلطان باستفتاء العلماء عن نازلة الطاعون هل يشرع الاجتماع فيها للدعاء ، فاختلفوا في فتواهم، فأمر أن يبتهل كل واحد إلى الله تعالى في سره ، وأشاروا عليه بالتوبة ورفع المظالم [٥٧] .

وممن توفي في هذا الطاعون الأمير محمد الابن البكر وولي عهد السلطان برسباي في يوم الثلاثاء ٢٦ جمادى الأولى[٥٨] ، والأمير يشبك الشقيق الأكبر للسلطان، فضلاً عن عدد كبير من الأعيان كمحتسب القاهرة صارم الدين إبراهيم بن ناصر الدين ، وأبو المكارم إبراهيم بن أحمد الشاذلي ، ونقيب الأشراف ومتولي كتابة السر أحمد بن علي بن إبراهيم الحسيني الدمشقي وصدر الدين أحمد بن محمود بن المعروف بابن العجمي الذي تولى ديوان الإنشاء والحسبة مراراً[٥٩]، والقاضي تقي الدين يحيى بن محمد بن يوسف الكرماني البغدادي[٦٠] ، وناصر بن محمد ناصر الدين البسطامي [٦١]، ونظام الدين يحيى بن سيف الدين بن محمد السيرامي[٦٢] وسليمان بن عبد الله بن يوسف ، وأبو الخير بن أبي السرور محمد المالكي مع أبيه وأخيه وأخيه فضلاً عن أبيه وأخيه [٦٣]،

وعبد الغني بن عبد الواحد بن إبراهيم المرشدي المكي والسلطان المخلوع محمد بن ططر [٦٤]، والشيخ جلال الدين نصر الله بن عبد الرحمن بن أحمد المعروف بالروياني [٦٥]،، وهاجر خوند بنت منكلى بغا زوج برقوق وأمها خوند فاطمة بنت الأشرف شعبان بن حسين بن قلاوون [٦٦]، فضلاً عن عدد كبير من المماليك السلطانية وأمرائهم كالأمير برد بك السيفي أحد مقدمي الألوف بمصر[٦٧]، ومقدم المماليك الأمير ياقوت الحبشي [٦٨]. ضرب الطاعون مدينة القاهرة وفشا بين الحيوانات لاسيما الأبقار في شهر شعبان سنة ٨٤١هـ/١٤٣٧م ثم انتقل إلى السكان في أول شهر رمضان من السنة ذاتها، وبلغ عدد الأموات الذين وردت أسماؤهم إلى ديوان المواريث (١٨) نسمة، ثم أخذ عددهم يتزايد في كل يوم، لاسيما الأطفال والإماء والعبيد [٦٩] . ما أن دخل يوم الأربعاء الثالث والعشرين من شهر رمضان حتى ازدادت شدة الطاعون وتزايد معه تخوف السلطان العزيز يوسف بن برسباي (٨٤١-٨٤٢هـ/١٤٣٧-١٤٣٨م)، فسأل الفقهاء عن الذنوب التي يرتكبها الناس، وهل يعاقبهم الله بالطاعون ، فقالوا نعم فأمر بمنع كل أنواع المعاصي من زنا وشرب الخمر وخروج النساء إلى الأسواق ، كما اتخذ السلطان إجراء آخر في ٢٦ رمضان، فأفرج عن جميع المسجونين [٧٠]. لقد أثرت شدة هذا الطاعون على الحياة اليومية في مدينة القاهرة بكافة جوانبها ، فأخذت الأوضاع الصحية والمعيشية في المدينة تسير نحو الأسوء يوماً بعد آخر[٧١] ، وممن توفي في هذا الطاعون أحمد بن محمد بن جبريل الأنصاري السعدي القاهري [٧٢] ، ومحتسب القاهرة دولات خجا [٧٣] ، وازدادت أعداد الموتى فبلغ عدد من صلي عليه بمصلاة باب النصر في وسط القاهرة فقط في اليوم(٤٠٠) نسمة ، وهى واحدة من (١١) مصلاة بالقاهرة وظواهرها ، إلا انه اخذ بالتناقص شيئاً فشيئاً مع دخول شهر ذي الحجة من السنة ذاتها [٧٤] .

إذا كانت أعداد الوفيات متقاربة في جميع مصليات القاهرة ، فان ضرب هذا العدد في عدد المصلاة يكون العدد التقريبي لعدد الأموات في القاهرة في اليوم الواحد أي (٤٠٠ X ١١ = ٤٤٠٠) ميتاً في اليوم الواحد. وهناك إشارة واحدة عن تفشي الطاعون في القاهرة في سنة ٨٤٣هـ/١٤٣٩م أوردها السخاوي في أثناء الحديث عن وفاة العلامة محمد بن طاهر بن أحمد بن محمد بن محمد غياث الدين المعروف بغياثا الخجندي ((دخل القاهرة غير مرة ومات بها في الطاعون سنة ثلاث وأربعين)) [٧٥] ، إلا انه لم يذكر أي تفصيلات عن هذا الطاعون أو وفيات أخرى حدثت فيه. وفي سنة ٨٤٨هـ/١٤٤٤م ظهر الطاعون بمصر ، واخذ بالانتشار حتى دخل القاهرة في أول شهر محرم ، وكان في تزايد يومي حتى بلغ شدته في صفر ، وبلغ عدد ضحاياه ما يزيد على(٥٠٠) نسمة في اليوم حسب ما أشار ابن تغري بردي ، كما أشار في رواية أخرى((كان بالقاهرة الطاعون العظيم ، بحيث كان يخرج في اليوم الواحد ما يزيد على الألف)) ، ومهما بلغ عدد الضحايا سواء (٥٠٠) أم (١٠٠٠) نسمة في اليوم ، فأنها نسبة كبيرة آنذاك إلى درجة انه وصفه بالطاعون العظيم مما يدل على شدته ، إلا أن وطأته لم تلبث أن خفت مع دخول شهر ربيع الأول ،

حيث بدأ يتناقص من القاهرة ويتزايد بضواحيها[٧٦]. وفي أول صفر ٨٥٢هـ/١٤٤٨م تفشى الطاعون بمصر ، وبلغ عدد ضحاياه أكثر من (١٠٠٠) نسمة تقريبا ، وممن توفي فيه محمد وأحمد ولدي السلطان الظاهر جقمق(٨٤٢-٨٥٧هـ/١٤٣٨-١٤٥٣م) وشقيقتهما التساعية وشقيقتهما الأخرى خوند فاطمة ابنة السلطان الخماسية[٧٧] وأخت السلطان وزوجته ، ومجموعة من الأعيان مثل بختك الناصري أحد أمراء العشرات[٧٨] والأمير العلاء الكرماني والشريف حسن بن على المعزول عن نقابة الأشراف والبرهان إبراهيم بن ظهير ناظر الإسطبل ، فضلاً عن جماعة من الأعيان كانت احدهم ابنة الخليفة المستكفي بالله سليمان (٨٤٥-٨٥٥هـ/١٤٤١-١٤٥١م) والأمير الناصري محمد بن طوغان الدوادار وخازندار الكمال ابن البارزي [٧٩] ، والأمير جانم الظاهري جقمق، وفي يوم الاثنين العاشر من صفر تناقص الطاعون تناقصاً واضحاً [٨٠]. ما أن دخل شهر ربيع الآخر سنة ٨٦٤ /١٤٥٩م حتى بدأ الطاعون ينشب أضفاره في بلدة بلبيس وسرياقوس من ضواحي القاهرة ، فتخوف السكان من تفشي الطاعون في القاهرة[٨١] لاسيما أنهم كانوا يعانون من ارتفاع الأسعار وظلم المماليك الأجلاب[٨٢] وانعدام الأمن، بسبب جرائم السرقة والسلب وقطع الطرق، فضلاً عن مهاجمة العربان للمدينة فيتوقف جلب الغلال[٨٣] وبدأت ضحايا الطاعون بالازدياد لاسيما في أرياف القاهرة ، فبلغ عدد من ورد اسمه إلى الديوان في العشر الأواخر من شهر ربيع الآخر خمسة وثلاثين(٣٥) نسمة ، ومع مستهل جمادى الأولى أخذت أعداد الوفيات بالتزايد، فبلغ من يرد اسمه إلى الديوان(٦٠) نسمة ، ثم وصل إلى (١٢٠) نسمة ما بين رجل وامرأة وصبي ، ومما انفرد به هذا الطاعون عن غيره،أنه كان ينقص في اليوم نقصاً قليلاً ثم يأخذ بالازدياد في اليوم التالي اكثر مما كان عليه ، واستمر الحال على هذا المنوال حتى انتهى من القاهرة نهائياً، ففي ١٧ جمادى الأولى بلغ عدد الضحايا(١٧٠)نسمة يومياً ممن ورد اسمه إلى الديوان،فبلغ عدد من صلي عليه بمصلات باب النصر وحدها(١٠٠) نسمة، وعندما اشتدت المحنة كلف الأمير زين الدين الإستادار جماعة من الناس بإحصاء من صلي عليه في جميع مصلوات القاهرة وظواهرها،فبلغ عددهم(٦٠٠) نسمة في اليوم الواحد [٨٤]. توفي في طاعون هذه السنة عدد من الشخصيات المعروفة كناظر الديوان شمس الدين منصور بن الصفي ، و القاضي زين الدين عبد الرحيم العيني ، وحاجب الحجاب الأمير يونس العلائي، ورأس نوبة الأمير يشبك الأشقر الأشرفي ، كما بلغ عدد الأموات في هذا اليوم ممن صلي عليه في مصلى واحد حسبما ورد إلى الديوان (٢٣٥) نسمة . وأما مجموع من صلي عليه في مصلوات القاهرة كلها فبلغ نحو (١١٥٣) نسمة ، ومما زاد الطين بلة تزامن هذا الطاعون مع أزمة اقتصادية أدت إلى ارتفاع مفرط في الأسعار بسبب ظلم المماليك الأجلاب، وازدادت شدة الطاعون في القاهرة وظواهرها مع بداية شهر جمادى الآخرة ، وكان معظم الأموات من الأطفال والعبيد والجواري، واختلف الناس في عدد الوفيات، فبالغوا فيها لخشيتهم على أنفسهم،فمنهم من قال بلغ عدد من يموت في اليوم(٤٠٠٠)

نسمة، ومنهم من قال (٣٥٠٠)، كما اشتهر هذا الطاعون عن غيره بغرابة أمره ، فقلما يسلم الموبوء من الموت إلى درجة أن بعضهم قال فيه((من كل مائة مريض يسلم واحد فأنكر ذلك غيره وقال ولا كل ألف مبالغة)) ، كما كان لهذا الطاعون أثره على المماليك السلطانية ، إذ توفي في شهر جمادى الآخرة عدد كبير منهم بلغ(٦٣٠) نسمة، إذ بلغت أعداد وفياتهم في اليوم الرابع عشر من هذا الشهر(٧٥) نسمة من بينهم(٣٥) أميراً. أما من توفي بهذا الطاعون من المماليك الإينالية فقط فبلغ(١٤٠٠) مملوك[٨٥]. في حين بلغ عدد الضحايا من العامة حسبما أشار ابن تغري بردي(٤٠٠٠)نسمة في اثنتي عشرة مصلاة ، إلا انه استدرك مشككاً في هذا العدد، ومعللاً شكوكه من خلال قوله إن عدد من صلي عليه في مصلاة باب النصر وحدها(٥٧٠) نسمة ، وفي مصلاة البياطرة(٤٧٠) نسمة، وفي الجامع الأزهر(٣٩٦) نسمة، وبذلك يكون المجموع الكلي (١٤٣٦) نسمة في المصليات الثلاث من مجموع سبع عشرة مصلاة ، وبناءً على ذلك كيف تكون إحصائية من مات في هذا اليوم (٤٠٠٠)، فهذه الإحصائية عارية عن الصحة. أخذ الطاعون يخف شيئاً فشيئاً من القاهرة وظواهرها في العشرة الأخيرة من رجب، وقد رافق ذلك انخفاض الأسعار نتيجة لزيادة عرض السلع والبضائع المحتكرة كالشعير والتبن وغيرها مما خفف من وطأة الوباء ، فبلغ عدد من صلي عليه في باب النصر(٢٥) نسمة، وبمصلاة البياطرة (٢٣) نسمة ،وبالجامع الأزهر(٥) وبمصلاة المؤمني (٣٥) نسمة ، بعد أن كان من يرد إليها بالمئات، ومع دخول شعبان خف الطاعون كلياً من القاهرة وجميع الديار المصرية [٨٦]. وفي مستهل رمضان سنة ٨٧٣هـ/١٤٦٨م ضربت مصر أزمة اقتصادية، أدت إلى موجة غلاء شديدة، نتج عنها تفشي وباء الطاعون فيها ، وكانت القاهرة إحدى مدنها المنكوبة،إذ وصل عدد ضحاياه ما بين (٤٠٠٠- ٥٠٠٠) نسمة في اليوم حسبما أشار الصيرفي (٩٠٠هـ)، ومعظمهم من المماليك والجواري والعبيد والأطفال، إلا انه اخذ بالتناقص في العشرة الثانية من رمضان وممن توفي فيه ابنة احمد بن السلطان برسباي وأمها وخالتها ، والأمير يونس العلائي الناصري فرج [٨٧] ، والفقيه محمد بن عبد الرحيم بن علي أبو الخير العقبي القاهري الشافعي[٨٨] ، كما توفيت فيه ابنة السلطان الأشرف قايتباي التي لم تتجاوز الرابعة من عمرها ، إلا أن الطاعون خف في شهر شوال حتى تلاشى ، فوصل عدد من صلي عليه في مصلاة باب النصر (٣٨) نسمة ، وفي مصلاة المؤمني (١٧) نسمة[٨٩]. لعل أشهر الطواعين التي ضربت مدينة القاهرة في عهد السلطان الأشرف قايتباي(٨٧٣-٩٠١هـ/١٤٦٨-١٤٩٦م) الذي حدث في سنة ٨٩٧هـ/١٤٩١م، إذ أودى بحياة أعداد كبيرة من السكان، وصلت إلى(٢٠٠٠٠٠) نسمة حسبما قدرتها بعض المصادر والمراجع ، فمات فيه ثلث المماليك تقريباً، فالسلطان ذاته فقد بسببه كل من زوجته وابنته ، كما انه خلف أزمة اقتصادية حادة، نتج عنها مجاعة كبيرة قتلت الكثير من الناس[٩٠] ،وممن توفي فيه الفقيه الحافظ محمد بن محمد بن المدعو

بالفرغل ، والأمير مغلباي الشريفي الظاهر خشقدمي ، وناصر بن مفتاح النويري المكي ، وناصر بن يشبك الدوادار [٩١]

المبحث الثالث : سبل الوقاية ومعالجة الإصابة بوباء الطاعون

على الرغم من السعي الحثيث من قبل الدولة والعامة في آن واحد ، لاتخاذ الإجراءات الكفيلة للحد من انتشار وباء الطاعون والقضاء عليه، إلا أن تلك الإجراءات كانت عقيمة، ولم يبق أمامهم سوى الابتهال إلى الله والدعاء والتوسل إليه لرفع الطاعون عنهم، وغالباً ما كانوا ينتظرون ارتفاعه عنهم تلقائياً لاعتقادهم بعدم وجود علاج له، لاسيما أنهم كانوا يفتقرون إلى الوسائل الوقائية كما في وقتنا الحالي كالحجر الصحي والعزل، وإبعاد الحيوانات خارج المدن وإغلاق المناطق الموبوءة لمنع انتشاره ، لذلك كانت أساليبهم بدائية حسب ما هو سائد مع العصر الذي تقع فيه الكارثة. لقد كان الرجوع إلى الله سبحانه وتعالى في مثل هذه المحن شيء طبيعي، فكان هذا النوع من الإجراءات التي تقوم بها السلطة والعامة معاً في أوقات انتشار الطاعون، كما هو الحال سنة ٨٢٢هـ/١٤١٩م ، حيث نودي في الناس من قبل محتسب القاهرة أن يصوموا ثلاثة أيام ليخرجوا بعدها مع السلطان المؤيد إلى الصحراء ليدعوا الله في رفع الطاعون عنهم، حاملين الأعلام والمصاحف ومكبرين بأصوات مرتفعة ، فضلاً عن خروج العلماء والفقهاء ومشايخ الصوفية، كما يتم تجهيز الأطعمة للفقراء من قبل السلطان ، ويخرج مرتدياً ملابس بسيطة من الصوف وراكباً فرساً من دون زينة ، وعليه علامات الخشوع والانكسار ومكثراً من التلاوة والتسبيح، وما إن يصل إلى مكان التجمع حتى ينزل عن فرسه مترجلاً ، ويبسط يديه داعياً الله سبحانه وتعالى وهو يبكي والجميع يدعون الله ويتضرعون إليه ، وبعد أن يكتمل الدعاء يركب السلطان وتسير العامة إلى حيث الأكل ، فيأكل السلطان معهم ، ثم يذبح السلطان بيده القرابين أمام الناس وتوزع على الفقراء، ومن الممارسات التي يقوم بها السلطان ورجال الدولة أيضاً التظاهر بالعدل ومحاربة الفساد المنتشر في مؤسسات الدولة من جهة والمجتمع من جهة أخرى فيتولى السلطان الكثير من الأمور الإدارية، والنظر بأحوال الرعية بنفسه وماله كالحسبة [٩٢] . كما أمر الخطباء بان ينزلوا عن المنبر درجة ، عندما يصلوا في الدعاء إلى ذكر اسمه ليكون اسم الله والرسول في مكان أعلى من المكان الذي يذكر فيه اسمه [٩٣] ، وكثيراً ما كان يأمر بالتنفيس عن المكروبين عسى الله أن ينفس كربتهم من خلال منع قضاته وحجابه وغيرهم من القيام بحبس المديونين نهائياً [٩٤] ، كما اتخذ السلطان برسباي إجراء آخر في أثناء طاعون سنة ٨٣٣هـ/١٤٢٩م، فأفرج عن جميع المسجونين من أرباب الجرائم وأغلق السجون بالقاهرة ومصر، فكان لهذا القرار من لدن السلطان آثاره السلبية بدلاً من الانتفاع منه ، إذ أدى إلى انتشار جرائم السرقة والفساد ، كما كان الإكثار من الصدقات وعمل الإحسان في أوقات الطاعون التي ينجم عنها مجاعات من الأمور التي يقوم بها السلطان وأرباب

الدولة ، فذبح السلطان المؤيد بنفسه في طاعون سنة ٨٢٢هـ/١٤١٩م (١٥٠) كبشاً سميناً قرابين لله تعالى ، فضلاً عن(١٠) بقرات سمان وجاموستين وجملين ووزعت على العامة ، كما أمر بتوزيع (٢٨٠٠٠) رغيف من الخبز[٩٥] . وعلى ما يبدو أن الدولة لم تتوقف عند ذلك بل كانت تقوم باتخاذ إجراءات اقتصادية عديدة كتوفير المواد الغذائية وتسعيرها ومحاربة الاحتكار ورفع الضرائب والمكوس، كما حدث في طاعون سنة٨١٩هـ/١٤١٦م ، لا سيما بعدما اخذ الغلاء يتزايد في مدينة القاهرة وضواحيها فأرسل السلطان المؤيد أميره الطواشي مرجان الهندي الخازندار إلى الوجه القبلي ومعه الكثير من الأموال لشراء القمح وجلبه إلى القاهرة لمساعدة الناس في التغلب على الأزمة ، كما رفع الضرائب والمكوس، ووضع تسعيرة للبضائع ومنع احتكار التجارة [٩٦] وأمر القضاة والمحتسبين والأمراء بمراقبة سير التسعيرة ومعاقبة المخالفين [٩٧]، وفي كثير من الأحيان تكون النتيجة عكسية، حيث تختفي البضائع من الأسواق ، فتضطر الدولة لإلغاء التسعيرة [٩٨]. أما الإجراءات التي اتخذتها الدولة بحق العامة في أوقات تفشي وباء الطاعون فكانت عديدة، منها دعوتهم للتوبة والدعاء ورفع المظالم ، وإزالة المنكر كالزنا والخمر لاعتقادهم أنها سبباً في حدوث الأزمات كنوع من العقاب الإلهي[٩٩] ، ففي أثناء تفشي طاعون سنة ٨٤١هـ/١٤٣٧م هاجمت الدولة جميع أوكار الفساد والخمر والحشيش[١٠٠]، كما اخذ القضاة والأمراء بحث الناس على الإقلاع عن المعاصي ، والإكثار من الطاعات ، فضلاً عن منع النساء من الخروج إلى المقابر وتوعدوا المخالفات منهن بالموت ، كما منعن من الخروج إلى الطرقات مطلقا ظناً منهم أن بمنعهن يرتفع الطاعون ، وأخذ والى القاهرة والحجاب في مراقبة الطرقات ، وعاقبوا المخالفات منهن [١٠١]. وفي كثير من الأحيان كان السلطان ورجال الدولة يتشبثون بأية معالجة تطرح كحل للخروج من المأزق حتى وإن كان خرافياً ، كما حدث عندما أشار كاتب السر على السلطان العزيز بجمع أربعين شريفاً اسم كل منهم محمد ويتم توزيع الأموال عليهم ، ويقوموا بتلاوة ما تيسر من القرآن بعد صلاة الجمعة بالجامع الأزهر ، وعندما تقترب صلاة العصر يقوموا بالدعاء والتكبير، والناس حولهم ، فصعد الأربعون إلى السطح ، فأذنوا العصر جميعاً معناً ، ثم انفضوا بعد ذلك، إلا أن ذلك لم يزد الطاعون إلا كثرة وشدة [١٠٢]، وكان هذا ما نصحهم به بعض الأعاجم الذين قالوا إن هذا العمل أُقيم ببلاد الشرق في أثناء طاعون حدث عندهم ، فارتفع عنهم عقيب ذلك [١٠٣] . وعلى ما يبدو أن موافقة السلطان على هذا الرأي ، على الرغم من انه كان من بعض تقاليد العجم واعتقاداتهم كان بسبب إدراكه لجسامة الطاعون الذي شكل حملاً ثقيلاً على كاهله. ومن الإجراءات الوقائية الصحية التي كان يقوم بها العامة عند انتشار وباء الطاعون لتجنب الإصابة به ، عدم الدخول إلى الأماكن الموبوءة وحمامات الأسواق والابتعاد عن التجمعات ، وهذا ما كان ينصح به العلماء والحكماء آنذاك[١٠٤] .

المبحث الرابع : اثر الطاعون على مدينة القاهرة في العصر المملوكي

من الطبيعي أن يكون لانتشار الأمراض لاسيما الوبائية منها كالطاعون آثار سلبية على مجريات الحياة في المجتمع ، ولا تقتصر هذه الآثار على جانب معين دون غيره، بل عصفت بمختلف جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعلمية في البلاد الموبوءة،الا أنها تباينت من جانب إلى أخر من حيث الشدة ، ومن وباء إلى آخر .

أولا :اثر الطاعون على الجانب الاقتصادي والاجتماعي

إن حدوث الطاعون يؤدي إلى شل الحياة الاقتصادية في البلاد الموبوءة ، ويتسبب في كثير من الأحيان بخلق أزمات غلاء تودي بحياة الكثير من السكان ، نتيجة لقلة المواد الغذائية أو رداءتها إن توفرت في الأسواق ، يقابلها ارتفاع كبير في الأسعار ، لذلك يضطر السكان إلى أكل لحوم الميتة وجيف الحيوانات كالقطط والكلاب وغيرها، وأشارت بعض المصادر إلى أن ((الكلب السمين صار يباع بخمسة دراهم والقطة بثلاثة دراهم))[١٠٥] ، ويتعداه في بعض الأحيان إلى أكل لحوم البشر، كما حدث في سنة٦٩٦هـ/١٢٦٩م و٦٩٧هـ/١٢٩٧م[١٠٦] فيؤدي إلى إضعاف المناعة عندهم ولا يقوون على مقاومة وباء الطاعون وغيره من الأوبئة التي تنتشر بالتزامن مع الفقر والبؤس ، فتكثر نسبة الوفيات ، وتنتشر الجثث في الطرقات لعدم وجود من يقوم بدفنها[١٠٧] . كما كانت الأسواق تضطرب في مثل هذا الظروف ، كما حدث في السنوات ٦٩٤هـ/١٢٦٧م [١٠٨] و٧٨٤هـ/١٣٨٢م[١٠٩]، لا سيما بعد أن قل وجود الكثير من المواد الغذائية فيها لكثرة الطلب عليها كمادة مفيدة للموبوءين كالبطيخ الصيفي ، وهذا ما حدث في سنة ٨١٦هـ/١٤١٣م ، إذ بيعت خمس بطيخات بألفي درهم أي ما يعادل ثمانية مثاقيل من الذهب ثم وصل ثمن النصف بطيخة إلى خمسمائة درهم ، كما عز وجود الماء فارتفعت أسعار السقاية ، فبلغ سعر الراوية الواحدة من الماء خمسة عشر درهماً[١١٠]. وتكررت المجاعة التي رافقت تفشي الطاعون مرة أخرى في سنة٨١٩هـ/١٤١٦م، فكانت الآثار السلبية على الناحية الاقتصادية والاجتماعية أكثر وضوحاً ، حيث ارتفعت أسعار القماش الذي يكفن به الأموات ، كما ارتفعت أسعار الأدوية ارتفاعاً ملحوظاً، وزادت أرباح العطارين والأطباء فبلغت إرباح احد العطارين من الأدوية في أحد الأوبئة ((في يوم واحد اثنان وثلاثين ألف درهم ، كذلك بلغ متوسط المكسب اليومي للطبيب حوالي مائة درهم))[١١١]، فضلاً عن ارتفاع سعر كل ما يحتاج إليه المرضى من السكر والكمثرى والبطيخ على الرغم من قلة من يعالج بالأدوية من الموبوءين ، لا سيما أن أكثرهم من فقراء العامة فتكون وفاتهم سريعة [١١٢] لعدم قدرتهم على شراء الأدوية والأغذية بسبب انخفاض مستواهم المعيشي والصحي، فيصبحوا طعماً لهذا الوباء [١١٣] ، وفي مقابل ارتفاع أسعار بعض البضائع يؤدي تفشي الطاعون إلى كساد بضائع أخرى بسبب الإجراءات التي اتخذتها السلطة كالبضائع النسائية من ثياب وعطور

وغيرها بسبب منعهن من الخروج ، فضلاً عما نزل بهن من موت أولادهن وأقاربهن . كما أن احتكار البضائع والسلع من لدن كبار رجال الدولة كان يزيد من الطين بلة ويسهم في تفاقم المجاعة، كما حدث في طاعون سنة ٨٦٤هـ/١٤٥٩م، حيث أدت الأوضاع الاقتصادية السيئة بسبب الأوبئة إلى انعدام الأمن إلى انتشار الكثير من الظواهر الاجتماعية السيئة، كظاهرة الفساد وحوادث السرقة والسلب في الأزقة والشوارع ، فلم يعد الشخص قادراً على الخروج من داره بعد أذان العشاء لأداء صلاة الجماعة ولو كان جار المسجد ، لانشغال رجال الدولة بممارسات فاسدة[١١٤]، كما أن انتقال الطاعون إلى الحيوانات يؤدي إلى الإضرار بالثروة الحيوانية وإنتاج المحاصيل الزراعية ، كما حدث في طاعون سنة ٨٣٣هـ/١٤٢٩م و٨٤١هـ/١٤٣٧م الذين ماتت فيهما أعداد كبيرة من الأبقار التي يستخدمها الفلاحون في أعمال الزراعة [١١٥]، فضلاً عن موت أعداد كبيرة من الفلاحين خلال تفشي الوباء، وهجرة القسم الآخر خشية الإصابة به ، مما جعل الأراضي تبقى بوراً من دون زراعة ، وبالتالي يقل الإنتاج الزراعي ((ولعجز الكثير من أرباب الأراضي عن ازدراعها لغلو البذر وقلة المزارعين)) [١١٦] ، مما يؤثر سلباً على الجانب الاجتماعي والمعيشي للفرد بسبب عدم وجود دخل كافٍ نتيجة لتوقف أعمال الزراعة ، كذالك الحال بالنسبة للتجارة ، فإنها كانت تعاني من كساد كبير في مثل هذه الظروف بسبب قلة البضائع الواردة والمصدرة بسبب خشية التجار من الإصابة بالطاعون ، إذ ما قدموا ، وهذا احد أسباب تدني المستوى المعيشي للفرد [١١٧] . كما لم يقتصر اثر الوباء على الطبقة الفقيرة ، وإنما تعداه إلى الأغنياء ورجال الدولة على الرغم من تمتعهم بمستوى اقتصادي واجتماعي عالٍ ، إذ توفي الكثير منهم في الطاعون الذي ضرت القاهرة كأبناء السلاطين وبناتهم وزوجاتهم وأمرائهم [١١٨]

ثانياً : اثر الطاعون على الجانب السياسي والعلمي

لقد كان وباء الطاعون ذا اثر سلبي كبير على الحياة السياسية والعلمية في القاهرة في العصر المملوكي ، فعلى صعيد الحياة السياسية كانت الفوضى السياسية والفتن تنتشر ، بسبب الفساد الإداري ، فيضطر السلطان إلى استبدال الموظفين والأمراء غير الكفوئين بآخرين أو انتقال سلطات ذلك الموظف إلى السلطان ذاته ، وهذا ما حدث عندما قام السلطان بتقييد سلطات محتسب القاهرة، الذي عزل عن من لدن السلطان المؤيد في أثناء طاعون سنة ٨٢٢هـ/١٤١٩م ، وانتقلت صلاحياته إلى السلطان شخصياً إلى درجة أنه لم يدع له أي سلطة تذكر بسبب سوء تدبيره [١١٩]، فضلاً عن قيام السلطان بعزل جميع نواب القضاة الأربعة البالغ عددهم مائة وستة وثمانين قاضياً في القاهرة وحدها ، وجعل لكل قاض من قضاة المذاهب الأربعة ثلاثة نواب فقط [١٢٠] ، كما أن وفاة الكثير من الأمراء والموظفين الكفوئين بسبب الإصابة بالطاعون جعل مناصبهم شاغرة ، لعدم وجود من هو قادر على تحمل أعبائها والأمثلة على ذلك كثيرة كقاضي العسكر الشيخ شمس الدين

الذي توفي في طاعون ٧٤٩هـ/١٣٤٨م[١٢١]، وكاتب السر صلاح الدين بن نصر الله الذي توفي في طاعون سنة ٨٤١هـ/١٤٣٧م ، والأمير تمرباي التمربغاوى رأس نوبة النوب في سنة ٥٨٢هـ/١٤٤٨م[١٢٢] وغيرهم كثير قد تم ذكرهم ضمن نطاق البحث. أما الحياة العلمية فكانت تتأثر كثيراً نتيجة لتوقف الدروس والحلقات بسبب عدم إمكانية التجمع ، خشيةً من الإصابة بالطاعون من ناحية ، وتوقف الرحلة في طلب العلم من والى البلد الموبوء من ناحية أخرى ، فضلاً عن وفاة الكثير من العلماء والفقهاء من ذوي الاختصاصات المختلفة بسبب تفشي الطاعون كالإمام محمود بن أبي القاسم بن محمد الأصبهاني الذي توفي في طاعون ٧٤٩هـ /١٣٤٨م ، وكان إماماً بارعاً في الفنون وله الكثير من المصنفات ، وشرع في تصنيف التفسير ، إلا أنه لم يكمله بسبب وفاته [١٢٣] ، والفقيه شرف الدين محمد بن عبد الواحد بن أبي بكر بن إبراهيم بن محمد السنقاري[١٢٤] ، وعبد اللطيف بن محمد بن محمد المعروف بابن الشحنة الذين توفي في طاعون سنة ٨٣٣هـ/١٤٢٩م[١٢٥] ، وغيرهم ممن ورد ذكرهم في متن البحث .

هوامش البحث

(١) مصطفى السيوطي الرحيباني ، مطالب أولي النهى (دمشق :١٩٦١م) :ج٤/ص٤٢٢.

(٢) احمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، تحقيق : عبد العزيز بن عبد الله الباز، ط٢(بيروت :٢٠٠٥م) : ج١٦/ص١٨١-١٨٢ .؛ جمال الدين أبي المحاسن يوسف ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (القاهرة :١٩٦٣م) : ج١٠/ص١٩٨-١٩٩.

(٣) مجموعة مؤلفين، الموسوعة الطبية الحديثة، ترجمة: احمد عمار وآخرون، ط٢(القاهرة ١٩٧٠م):ج٥/ص٧٣٧-٧٣٨ ؛ احمد عطية الله، القاموس الإسلامي، ط٣(مصر: ١٩٦٨م):ج٤/ص٤٢٥ ؛ يوسف درويش غوانمة ، الطاعون والجفاف وأثرهما على البيئة في جنوب الشام (الأردن وفلسطين) في العصر المملوكي ، بحث منشور في مجلة علوم فصلية (دمشق : ١٩٨٣م) :ع١٣-١٤ / ص٢٣٤ .

(٤) أبو عثمان بن بحر الجاحظ ، الحيوان ، تحقيق : عبد السلام هارون (القاهرة :١٩٤٥م) :ج٤/ص١٣٦؛ أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي ، لطائف المعارف ، تحقيق : إبراهيم الأبياري وآخر(القاهرة:د.ت)،ص ٢٣٤ ؛ احمد بن عبد الوهاب النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب (القاهرة: د.ت):ج١/ص٣٧١ .

(٥) قاسم عبده قاسم ، النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك (القاهرة:١٩٧٨م)،ص١٢٩-١٣٨.

(٦) عطية الله ، القاموس الإسلامي : ج٤/ص٤٢٦ ؛ محمد فريد وجدي ، دائرة معارف القرن العشرين (بيروت :١٩٧١م) : ج٥/ص ٧٣٧ .

(٧) النجوم الزاهرة ج١٦/ص١٤١ .

(٨) عطية الله ، القاموس الإسلامي : ج٤/ص٤٢٦ ؛ وجدي ، دائرة معارف القرن العشرين : ج٥/ص ٧٣٧ .

(٩) عبد الرحمن بن محمد الحضرمي ، مقدمة ابن خلدون ، ط٨(بيروت : ٢٠٠٣م) ، ص ٢٣٨ .

(١٠) للمزيد من التفاصيل ينظر : أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق:اولرخ هارمان (القاهرة : ١٩٧١م):ج٨/ص٢٧٣ ؛ محمد بن احمد بن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور (القاهرة :م١٩٦١) : ج٣/ص١٨ .

(١١) سنان بن ثابت بن قرة ، الذخيرة في علم الطب (القاهرة :١٩٢٨م) ، ص ١٦٧؛ كما أكدت كتب البلدانيين المسلمين على العلاقة بين المناخ وظهور الأوبئة ، فضلاً عن اهتمام السلطات الإسلامية وتركيزها الكبير على توفر الشروط الصحية في مناخ وبيئة الموقع الذي يتم اختياره . ينظر: أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي ، معجم البلدان (بيروت : د.ت.) : ج١/ص٩ ؛ زكريا بن محمد بن محمد القزويني ، آثار البلاد وأخبار العباد (بيروت : ١٩٦٠م) ، ص ١٥٢ .

(١٢) عبر المصريون عن هذه الظاهرة بقولهم((توحم النيل)) وعزوا ذلك إلى أسباب كثيرة .للمزيد من التفاصيل ينظر: النويري، نهاية الأرب:ج١/٢٦٤؛ تقي الدين احمد بن علي المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تحقيق:محمد زينهم(القاهرة:١٩٩٨م):ج١/ص١٦٥-١٦٦؛قاسم، النيل والمجتمع المصري ، ص١٤ .

(١٣) ابن أيبك ، كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق :هانس روبرت رويمر (القاهرة:١٩٦٠م) : ج٩/ص٢٥٨؛ أبو حفص زين الدين عمر بن الوردي ، تاريخ ابن الوردي (القاهرة :١٢٥٨هـ) : ج٢/ص٣٤٩ ؛المقريزي ، إغاثة الأمة بكشف الغمة (القاهرة : ١٩٥٧م)، ص ٤١-٤٢ ٢ ؛ المواعظ والاعتبار: ج١/ ص١٦٧ .

(١٤) غامس خضر حسن الدوري ، الكوارث الطبيعية وآثارها في العراق حتى نهاية الدولة العباسية، أطروحة دكتوراه غير منشورة مقدمة الى مجلس كلية الآداب (جامعة بغداد : ١٩٩٦م) ، ص٢٣٤ .

(١٥) مقدمة ابن خلدون ، ص ٢٣٨ .

(١٦) عثمان علي محمد عطا ، الأزمات الاقتصادية في مصر في العصر المملوكي وأثرها السياسي والاقتصادي والاجتماعي (القاهرة : د.ت.) ، ص ٧٤ .

(١٧) محمود الحاج قاسم ، الطب الوقائي النبوي ، بحث منشور ضمن كتاب بحوث الندوة القطرية الرابعة لتاريخ العلوم عند العرب (الموصل : ١٩٨٩م) : ج١/ص ١٦٣ .

(١٨) قاسم ، النيل والمجتمع المصري ، ص ٦٧ .

(١٩) جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة : ١٩٦٨م) : ج٢/ص٣٠١ .

(٢٠) السيوطي ، حسن المحاضرة : ج٢/ص٣٠٣ .

(٢١) أبو الفضل تقي الدين محمد بن فهد المكي، لحظ الألحاظ ذيل طبقات الحفاظ(بيروت: د.ت.): ج١/ص٧٩.

(٢٢) ابن حجر العسقلاني ، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، تحقيق: محمد عبد المعيد خان، ط٢(حيدر آباد : ١٩٧٢م) : ج١/ص ٤٦٠- ٤٦١ ، ج٤/ص٢٩٨ ، ج٥/ص٣٤٦ .

(٢٣) السيوطي ، حسن المحاضرة : ج٢/ص٣٠٣ .

(٢٤) أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي ، البداية والنهاية (بيروت : د/ ت) : ج١٤/ص٣٠٢ .

(٢٥) صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي ، الوافي بالوفيات ، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وآخر(بيروت: ٢٠٠٠م) : ج١٠/ص١٨١.

(٢٦) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة : ج٢/ص٦٢ ، ج٣/ص١٥٦ ، ج٤/ص٢٣٢.

(٢٧) السيوطي ، حسن المحاضرة : ج٢/ص٣٠٣ .

(٢٨) ابن حجر العسقلاني ، إنباء الغمر بأنباء العمر ، تحقيق :حسن حبشي (القاهرة :١٩٦٩م) :ج١/ ص٢٣١؛ السيوطي ، المصدر نفسه : ج٢/ص٣٠٦.

[٢٩] السيوطي ، المصدر نفسه : ج٢/ص٣٠٦.

[٣٠] النجوم الزاهرة : ج١١/ص٢٥١ ؛ ابن حجر العسقلاني ، إنباء الغمر :ج١/ص٣٥٠ ؛ السيوطي، المصدر نفسه :ج٢/ص٣٠٧ .

[٣١] ابن حجر العسقلاني ، إنباء الغمر: ج١/ص٣٣٠ ، ٣٣٧.

[٣٢] حسن المحاضرة : ج٢/ص٣٠٩ .

[٣٣] المصدر نفسه : ج٢/ص٣٠٨ .

[٣٤] ابن حجر العسقلاني ، إنباء الغمر : ج٣/ص٨ .

[٣٥] المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا (بيروت: ١٩٩٧م): ج٦/ ص٣٤٨.

[٣٦] حسن المحاضرة :ج٢/ص٣٠٩ .

[٣٧] السلوك : ج٦/ص٣٧٦ ؛ ابن حجر العسقلاني ، إنباء الغمر :ج٣/٥٣ ؛ النجوم الزاهرة :١٤/٢٥.

[٣٨] السيوطي ، حسن المحاضرة :ج٢/ص٣٠٩ .

[٣٩] ابن حجر العسقلاني ، إنباء الغمر :ج٣/ص٨٧ ؛ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (بيروت : د/ ت) :ج١١/ص٥٠ .

[٤٠] السخاوي ، المصدر نفسه : ج١/ص١٢٧.

[٤١] ابن حجر العسقلاني ، إنباء الغمر : ج٣/ص١٠٧ .

[٤٢] حسن المحاضرة :ج٢/ص٣٠٩ .

[٤٣] ابن حجر العسقلاني ، إنباء الغمر : ج٣/ص١٣٩ .

[٤٤] أشار السيوطي إلى أن الطاعون حدث بمصر، ولم يشر إلى القاهرة.ينظر: حسن المحاضرة: ج٢/ص٣٠٩.

[٤٥] المصدر نفسه : ج١٤/ص٧٩- ٨١ .

[٤٦] ابن حجر العسقلاني ، إنباء الغمر : ج٣/ص١٩٩ .

[٤٧] السيوطي ، حسن المحاضرة :ج٢/ص٣٠٩ .

[٤٨] ابن تغري بردي،النجوم الزاهرة:ج١٤/ص٣٤٠، ج١٥/ص١٥٦؛السيوطي،حسن المحاضرة: ج٢/ ص٣٠٩.

[٤٩] ابن تغري بردي ، المصدر نفسه : ج١٤/ص٣٤٠.

[٥٠] ابن حجر العسقلاني ، إنباء الغمر: ج٣/ص٤٣٧-٤٣٨ .

[٥١] ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة : ج١٤/ص ٨١ .

[٥٢] ابن تغري بردي ، المصدر نفسه : ج١٤/ص ٣٣٨-٣٣٩ .

[٥٣] المقريزي ، السلوك : ج٧/٢٠٨ ؛ ابن تغري بردي ، المصدر نفسه : ج١٤/ص٣٤٠ - ٣٤٢ .

[٥٤] ابن تغري بردي ، المصدر نفسه : ج١٤/ص٣٤٢.

(٥٥) المقريزي ، السلوك :ج٧/٢٠٨ ؛ ابن تغري بردي ، المصدر نفسه : ج١٤/ص٣٤٣.

(٥٦) المقريزي ، المصدر نفسه : ج٧/٢٠٨ .

(٥٧) ابن حجر العسقلاني ، إنباء الغمر : ج٣/ص٤٣٨ .

(٥٨) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة : ج١٤/ص٢٣٣.

(٥٩) ابن حجر العسقلاني ، إنباء الغمر : ج٣/ص ٤٤١-٤٤٣ ، ٤٥٣.

(٦٠) عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط وآخر(دمشق : ١٤٠٦ه) :ج٧/ص ٢٠٦-٢٠٧ .

(٦١) السخاوي ، الضوء اللامع : ج١٠/ص١٩٦.

(٦٢) الحنبلي ، شذرات الذهب :ج٧/ص٢٠٧.

(٦٣) السخاوي ، الضوء اللامع : ج٣/ص٢٦٥ ، ج١١/ص١٥٦.

(٦٤) ابن حجر العسقلاني ، إنباء الغمر :ج٣/ص٤٥٠.

(٦٥) الحنبلي ، شذرات الذهب :ج٧/ص٢٠٧.

(٦٦) ابن حجر العسقلاني ، إنباء الغمر : ج٣/ص٤٥٢ ؛ الحنبلي ، المصدر نفسه :ج٧/ص٢٠٧.

(٦٧) ابن حجر العسقلاني ، المصدر نفسه :ج٣/ص٤٥٢،٤٥١.

(٦٨) الحنبلي ، شذرات الذهب :ج٧/ص٢٠٧.

(٦٩) المقريزي ، السلوك :ج٧/ص٣٤٩ ، ٣٥٨ ؛ السيوطي،حسن المحاضرة :ج٢/ص٣٠٩.

(٧٠) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة : ج١٥/ص٩٣-٩٤.

(٧١) المقريزي ، السلوك ج٧/ص٣٥٠ ؛ ابن تغري بردي ، المصدر نفسه : ج١٥/ص٩٥.

(٧٢) السخاوي ، الضوء اللامع : ج٢/ص٧٢.

(٧٣) المقريزي ، السلوك : ج٧/ص٣٥٨ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة : ج١٥/ص١٠٤.

(٧٤) ابن تغري بردي ، المصدر نفسه : ج١٥/ص١٠٤-١٠٥.

(٧٥) السخاوي، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة(بيروت : ١٩٩٣م):ج٢/ص٤٨٨.

(٧٦) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة : ج١٥/ص٣٤٩- ٣٥٩.

(٧٧) ابن تغري بردي ، حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور(د.م. :د.ت.):ج١/ص٥٠؛الحنبلي، شذرات الذهب:ج٧/ص٢٦١.

(٧٨) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة : ج١٥/ص٣٩٢.

(٧٩) الحنبلي ، شذرات الذهب : ج٧/ص٢٦١ .

(٨٠) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة : ج١٥/ص٣٩٠ -٣٩٢ .

(٨١) المصدر نفسه : ج١٦/ص١٣٦- ١٣٧ ، ١٤٠ .

(٨٢) اخذ السلاطين المماليك منذ بداية دولتهم يكثرون من شراء المماليك الاجلاب الصغار السن، ويشرفون على تربيتهم تربية عسكرية إسلامية ، ويجعلونهم ضمن ما يسمى بالمماليك السلطانية. ينظر:انطوان

خليل ضومط ، الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ، ط٢ (بيروت : ١٩٨٢م)، ص٣٣-٣٤.

(٨٣) علي بن داؤد الجوهري الصيرفي ، إنباء الهصر بأبناء العصر ، تحقيق : حسن حبشي (القاهرة: ١٩٧٠م)،ص١٤٤-١٤٥ ، ١٩٢-١٩٣ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور :ج٣/ص١٢-١٣ .

(٨٤) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة : ج١٦/ص١٣٦- ١٣٧ ، ١٤٠.

(٨٥) المصدر نفسه : ج١٦/ص١٤٣،١٤١-١٤٧ .

(٨٦) المصدر نفسه : ج١٦/ص١٤٥-١٤٧

(٨٧) الصيرفي ، إنباء الهصر، ص٥٩ ، ٨٠ .

(٨٨) محمد بن شاكر الكتبي ، عيون التواريخ ، تحقيق : إحسان عباس (بيروت : د/ت) :ج١/ص٥ ؛ السخاوي ، الضوء اللامع : ج٨/ص٥١ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور : ٢٦/٣ .

(٨٩) الصيرفي ، إنباء الهصر ، ص ٦٠ ، ٦١ .

(٩٠) ابن إياس ، بدائع الزهور : ج٢/٢٧٣، ٢٧٥ ؛ قاسم ، النيل والمجتمع المصري، ص ٦٧ .

(٩١) السخاوي ، الضوء اللامع : ج٩/ص٢٧٤ ؛ ج١٠/ص١٦٥ ، ١٩٧.

(٩٢) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة : ج١٤/ ص ٤١ -٤٢ ، ٧٨ -٧٩.

(٩٣) حسن المحاضرة :ج٢/ص٣٠٩ .

(٩٤) ابن حجر العسقلاني ، إنباء الغمر :ج٣/ص٤٣٥.

(٩٥) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة : ج١٤/ص ٧٩ ، ج١٥/ص٩٤ .

(٩٦) المصدر نفسه : ٤١/١٤ -٤٢ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور : ج٤/ص٧٧ ؛ ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر :ج٣/ص٨٥-٨٦ .

(٩٧) قاسم ، النيل والمجتمع المصري ، ص ٧٠ .

(٩٨) المقريزي ، إغاثة الأمة ، ص ٣٣ ؛ السلوك :ج١/ ص٧٠٦ .

(٩٩) ابن حجر العسقلاني ، إنباء الغمر :ج٣ / ص٤٣٩ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة : ج١٥/ ص٩٣.

(١٠٠) قاسم ، النيل والمجتمع المصري ، ص ٧٠ .

(١٠١) ابن حجر العسقلاني ، إنباء الغمر : ج٣/ ص ٤٣٩ ؛ ابن تغري بردي ، لنجوم الزاهرة: ج١٥/ص٩٣.

(١٠٢) ابن حجر العسقلاني ، المصدر نفسه : ج٣/ص٤٣٨ .

(١٠٣) المقريزي ، السلوك :ج٧/٢٠٨ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة : ج١٤/ص٣٤٣ .

(١٠٤) ابن حجر العسقلاني ، إنباء الغمر :ج١/ص٤٤٠ ، ٤٤٤ .

(١٠٥) ابن اياس ، بدائع الزهور : ج١/ص١٣٣ .

[١٠٦] النويري ، نهاية الأرب : ج٢٩/ص٨٢ ؛ المقريزي ، السلوك : ج١/ص٨٠٨ ؛ إغاثة الأمة، ص٣٧-٣٨ ؛ السيوطي ، حسن المحاضرة :ج٢/ص٢٩١-٢٩٢ .

[١٠٧] المقريزي ، إغاثة الأمة ، ص ٧٦-٧٧ ؛ أ. اشتور ، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى (دمشق : ١٩٨٥م) ، ص ٣٩٦ .

[١٠٨] ابن الوردي ، تاريخ ابن الوردي : ج٢/ص٢٣٣ ؛ السيوطي ، حسن المحاضرة : ج٢/ص٣٠١ .

[١٠٩] السيوطي ، المصدر نفسه : ج٢/ص٣٠٦.

[١١٠] المقريزي ، السلوك : ج٦/ص٣٤٨ ؛ ابن حجر العسقلاني ، إنباء الغمر :ج٣/ص٨ .

[١١١] المقريزي ، إغاثة الأمة ، ص ٣٥-٣٦ .

[١١٢] المقريزي ، السلوك : ج٧/٢٠٨ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة : ج١٤/ص٣٤٠ - ٣٤٢ .

[١١٣] ابن ايبك ، كنز الدرر : ج٨/ص٣٨٣ .

[١١٤] المقريزي ، السلوك : ج٧/ص٣٥٠ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة : ج١٥/ص٩٥ ، ١٣٦، ١٤٥.

[١١٥] المقريزي ، المصدر نفسه :ج٧/ص٣٤٩ ، ٣٥٨؛ ابن تغري بردي ، المصدر نفسه : ج١٥/ص٩٢؛ السيوطي ، حسن المحاضرة :ج٢/ص٣٠٩ .

[١١٦] المقريزي ، إغاثة الأمة ، ص٤١ .

[١١٧] عطا ، الأزمات الاقتصادية ، ص ٥٨ ؛ قاسم ، عصر سلاطين المماليك "التاريخ السياسي والاجتماعي(القاهرة :١٩٩٨م) ، ص ٢٥٣-٢٥٤ .

[١١٨] ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة : ج١٤/ص٢٣٣؛ حوادث الدهور: ج١/ص٥٠ ؛ الحنبلي، شذرات الذهب : ج٧/ص٢٦١.

[١١٩] قاسم ، النيل والمجتمع المصري ، ص٥٠ .

[١٢٠] ابن حجر العسقلاني ، إنباء الغمر : ج٣/ص٩٠ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة : ج١٤/ص٤١ -٤٢.

[١٢١] أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر بن قاضي شهبة ، طبقات الشافعية ، تحقيق: د. الحافظ عبد العليم خان (بيروت : ١٤٠٧هـ):ج٩/ص٩٧-٩٨.

[١٢٢] المقريزي ، السلوك : ج٧/ص٣٥٧ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة : ج١٥/ص١٠٣، ٣٩٢ .

[١٢٣] السيوطي ، طبقات المفسرين ، تحقيق: علي محمد عمر (القاهرة : ١٣٩٦هـ):ج١/ص٢٨٢.

[١٢٤] ابن حجر العسقلاني ، إنباء الغمر : ج١/ص٥٧٥.

[١٢٥] السخاوي ، الضوء اللامع : ج٤/ص٣٣٨.

This document was created with Win2PDF available at http://www.daneprairie.com.
The unregistered version of Win2PDF is for evaluation or non-commercial use only.